مقياس: الدراسات الثقافية

المحاضرة رقم 02

الحياة الاجتماعية والدراسات الثقافية:

يتم إنتاج الثقافة واستهلاكها ضمن حياة اجتماعية. وعليه، يجب أن يحدد موضع مواد ثقافية ما أو ممارسات ثقافية ما ضمن العلاقات الاجتماعية للإنتاج والتلقى والتي ضمنها يتم إنتاج الثقافة وتوزيعها واستهلاكها من أجل فهم وتفسير صحيحين لها.فتحديد وتعيين السياق الذي تنتج فيه الاشكال الثقافية وجمهورها في وضعيات تاريخية خاصة يساعد على تبيين كيف تعكس المواد الثقافية \او تعيد إنتاج علاقات أو ظروف اجتماعية حقيقية _أو تعارضها وتحاول تغييرها.

بعد الحرب العالمية الثانية، ظهر المجتمع الاستهلاكي في كل الدول الغربية. فبينما عملت الشركات الأمريكية الأساسية على تطوير أنظمة أنتاج واستهلاك على نطاق واسع في العشرينيات من القرن الماضي، والتي عرفت ظهور وصعود الصناعات الإعلامية على غرار البث الإذاعي، الإشهار و النشر الجماهيري لترويج السلع الاستهلاكية، حال الكساد الاقتصادي في الثلاثينات ومن بعده الحرب العالمية الثانية دون تأسيس المجتمع الاستهلاكي.

كما لا حظنا فيما سبق، كانت مدرسة فرنكفورت، في منفاها آنذاك في المنفى، من بين أول من نظر لهذا التشكيل الجديد للمجتمع والثقافة في نقدهم للصناعات الثقافية ، الدور الإدماجي للمجتمع الجماهيري الاستهلاكي، والقيم الجديدة وبنى الشخصية التي كانت بصدد التبلور.بنهاية الخمسينيات، كان المنظرون في كل الدول الرأسمالية المتطورة يطرحون نظريات عن الاستهلاك، وسائل الإعلام، والظروف المتغيرة للحياة اليومية وذلك للاستجابة للتغيرات والتحولات في المجتمع الإعلامي والاستهلاكي.

في الولايات المتحدة الأمريكية، قامت بحوث التسويق التابعة للشركات الكبيرة ووكالات الإشهار ببحث جماهير وسائل الإعلام، وتمخض عن هذه العملية ظهور نموذج من دراسات **الاتصال الجماهيري**.

بدأ بول لا زارسفيلد وزملاؤه في معهد بحوث الإذاعة ببرنستون– والذي كان يضم عضو مدرسة فرانكفورت تيودور أدورنو– ببحث أي منم البرامج يقبل عليها الجمهور بانتظام، وعكفوا على دراسة أذواق الجمهور،

وبناء عليه عملوا على نصح المؤسسات بخصوص اتجاهات المستهلك وأي من البرامج أولى بالبث على افتراض أنها ستحوز على أكثر شعبية.وعليه، ظهرت بحوث الاتصال الجماهيري كمنتوج ثانوي لبحوث المستهلك في الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضي، موجدة لتقليد بحثي إمبريقي لأشكال الاتصال والثقافة القائمة.

بموازة ذلك، أطلق التحديث السريع في فرنسا بعد الحرب العالمية الثانية ونشوء مجتمع الاستهلاك فيها في الخمسينيات نقاشا كبيرا، و أسهم في تشكيل كم متنوع من الخطابات حول وسائل الإعلام والمجتمع الاستهلاكي في فرنسا، ملهما كلا من رولان بارث، هنري لافابفر، غي ديبور و جون بودريارد وبعضا من معاصريهم لبلورة تحاليل جديدة لأشكال الثقافة و المجتمع الجديدة. كان واضحا أن المجتمع الاستهلاكي كان يضاعف صور و عروض(spectacles) وأشكال ثقافية و أنماط حياتية جديدة. حاول المنظرون الرواد الفرنسيون في تلك الفترة تفسير وفهم- وفي كثير من الأحيان- انتقاد كل جديد في تلك الفترة.

طبق رولان بارث نظريات البنيوية والسيميولوجيا الناشئة لمحاولة فهم توسع الثقافة الإعلامية ووظائفها الإعلامية المهمة. تم تطوير البنيوية في خمسينيات القرن الماضي من قبل عالم الانثروبولوجيا الفرنسي كلود ليفي ستروس، لتحديد البنى الأساسية للثقافة والمجتمع. أما السيميولوجيا، التي أبدعت في وقت سابق من القرن من قبل عالم اللسانيات السويسري فرديناند دو سوسير فعملت على تحليل قواعد، شفرات، وممارسات الخطاب المستعمل. في نظر بارث، تفترض السيميولوجيا أن المجتمع والثقافة هما بمثابة نصوص يمكن تحليلها لتبين بناها، معانيها، وتأثيراتها.في كتابه الاساطير(MYTHOLOGIES)، استخدم بارث كلا المنهجين لتحليل الشفرات والمعاني الكامنة في مواد الثقافة الشعبية والتي تمتد من المنازلات إلى ومضات الإشهار للمسلسلات وذلك لتفكيك وظائفها الاجتماعية.عملت الأساطير التي درسها بارث على تطبيع وتخليد(أي ديمومة) أشكال الثقافة السائدة لدى البرجوازية الفرنسية التي قام بتحليلها.في روايته الشهيرة لصورة جندي إفريقي أسود يقوم بتحية العلم الفرنسي، يذهب بارث أن الصورة تمحو أهوال الإمبريالية ، مقدمة بورتريه ملائكي لجندي فرنسي تظهر في مظهر الطبيعي(زيفا وكذبا) وجوب أن يحيي جندي إفريقي العلم الفرنسي، بل وتجعل من ذلك معيارا للسلوك العسكري.

مقاربة تاريخية وثقافية أخرى جد مختلفة لدراسة وسائل لإعلام والثقافة تم تطويرها في أمريكا الشمالية في الخمسينيات والستينيات من قبل مارشال ماكلوهان. ففي كتابه المميز والمؤثر **فهم وسائل الإعلام**

(understanding media)وصف ماكلوهان تحولا باراديغميا من الثقافة المكتوبة الاسبق إلى ثقافة الإعلام الجديد(الإذاعة والتلفزيون في زمنه). فبينما أنتجت الثقافة المكتوبة — حسبه- اشخاصا فردانيين متعلمين وعقلانيين، يعتمدون الشكل المنطقي والخطي لوسائل الإعلام المكتوبة في التفكير والاستدلال، بالمقابل أنتجت الثقافة الإعلامية المنتشرة – في زمنه- أفراد غير عقلانيين أكثر تشضيا مغمورين في سيل المرئيات والمسموعات والعروض الجارف لوسائل الإعلام مثل الفيلم، الراديو، والتلفزيون والإشهار. الثقافة الإعلامية الجديدة، حسب ماكلوهان *قبلية* تنشر أفكارا و سلوكات جماعية. كانت تولد ثقافة ووعيا عالميا متناميا مفضيا حسبه إلى تجاوز التوجهات الفردانية والوطنية السائدة في الفترة الحديثة السابقة.

استحث ماكلوهان جيلا بأكمله ليأخذ وسائل الإعلام على محمل الجد باعتبارها فاعلا نشطا في تغيير تاريخي أساسي، والثقافة الإعلامية بوصفها ميدانا مهما للدراسة. في عمله المزلزل،** مجتمع العرض**(أو الاستعراض) (society of spectacle)، وصف غي ديبور انتشار السلع والتراكم الهائل للعروض اتسم بها المجتمع الاستهلاكي الجديد. سلع من مختلف الأنواع ومحلات عملاقة تعرض وفرة مدهشة من الأشياء للبيع والتي بدورها تحضى بإشهار و احتفاء في حملات إعلانية تشيد وتبرز الجوانب الاستهلاكية المغرية لها و تخلع عليها حلة ساحرة. في تصور ديبور تمثل وسائل الأعلام ذاتها عروضا (spectacles)، مثال ذلك محطة MTV وما تبثه من من توليفة ساحرة من فيديوهات موسيقية، وإشهارات ومقاطع متواصلة تعمل على تتبع واقتفاء ديناميكيات و تجاذبات الثقافة الشبابية المعاصرة. تقدم الافلام عرضا يتجاوز واقع الحياة سعة مشحونا بتأثيرات خاصة وصوت صاخبا.

مما سبق، يحيل مفهوم مجتمع العرض إلى وسائل الإعلام والمجتمع الاستهلاكي و الذي ينتظم متمحورا حول استهلاك الصور ، السلع و العروض. في أيامنا، مراكز التسوق، العروض السيبرية على النت(cyberspectacles)، أجهزة الواقع الافتراضي ومجالاته توسع فضاء العرض، موفرة تجليات جديدة وثيقة الصلة بتحليل ديبور. أكثر من ذلك، يحيل مجتمع العرض أيضا إلى الأجهزة المؤسساتية والتقنية الهائلة في مجتمعاتنا المعاصرة التي تنتج سلعا وأحداثا إعلامية. كما يمتد المفهوم ليشمل كل الوسائل والطرق التي تستعملها القوى الحاكمة ، عدا القوة المباشرة، لإخضاع الأفراد لتلاعب مجتمعي، مع الحرص على التعمية على طبيعة وآثار عمليات السيطرة والاستتباع. ضمن تعريف أوسع، النظام التربوي ومؤسسات الديمقراطية النيابية، والابتكارات اللامتناهية للسلع الاستهلاكية، الرياضات، الثقافة الإعلامية، الهندسة المعمارية الحضرية والريفية

وكل التصاميم تمثل مكونا رئيسا من مكونات مجتمع العروض.النظام المدرسي مثلا، يشتمل على الرياضات، الجمعيات، النوادي وكثير من الفعاليات والنشاطات والطقوس التي تبرمج الفرد وتجعله يستبطن الإيديولوجيات والممارسات المسيطرة. كما أن عالم الساسة المعاصر، حافل بل مشبع بالعروض، ابتداء من الصور العرضية اليومية مرورا بالأحداث الخاصة العالية التخطيط والتنظيم والتي تكسو سلطة الدولة بحلة درامية، وليس انتهاء بالإشهارات التلفزيونية و عمليات إدارة الصورة للمترشحين المصممين والمقولبين بعناية فائقة أثناء الحملات الانتخابية.

في الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية، أخذ العرض بعدا عالميا لدى غزو شركات مثل كوكاكولا، بيبسي، شركات السيارات العالمية، IBM و صناعات الكمبيوتر الصاعدة، ولاحقا ماكدونالدز، نايك، مايكروسوفت، آبل، وسائر منتجاتها العالم قاطبة. سجل كل من دورفمان وأرموند ماتلار رد فعل نشطاء العالم الثالث على تشبع ثقافة أمريكا اللاتينية بمنتجات شركة والت ديزني.في مقالهم المثير للجدل ** كيف نقرأ البطة دونالد**(how to read Donald Duck)، فقدموا تفكيكا نقديا لمختلف المعاني، الرسائل والإيديولوجيات الكامنة في مواد ثقافية تبدو لأول وهلة بريئة على غرار الكتب الفكاهية والرسوم المتحركة. شرح الكاتبان كيف تحفل مواد الفكاهة الشعبية بكم معتبر من من الصور والقصص التي تعمل على تطبيع الرأسمالية والإمبريالية، على نحو ما تفعله الأساطير التي قام بارث بنقدها في فرنسا. بنهاية الستينيات كانت المقاربات النقدية للمجتمع والثقافة تعم العالم.كل النظريات التي عرضناها لحد الان يمكن رؤيتها كنماذج للدراسات الثقافية والإعلامية. لكن مدرسة الدراسات الثقافية البريطانية والتي أصبحت ظاهرة عالمية على قدر كبير من الأهمية خلال عقود دشنت من طرف مركز الدراسات الثقافية المعاصرة بجامعة بيرمنغهام سنة 1964.بقيادة مديره ريتشارد هوغارت، ثم خليفته ستيوارت هال،الذي أدار المركز من 1968 حتى1979،بلورت جماعة بيرمنغهام مجموعة ثرية من المقاربات من منظورات نقدية لتحليل، تفسير، نقد المواد الثقافية، تمزج بين النظرية الاجتماعية واعتبار العوامل السياقية بالإضافة إلى تحليل النصوص الثقافية.

ما تعتبر حاليا المرحلة الكلاسيكية للدراسات الثقافية البريطانية و الممتدة من بداية الستينيات حتى بداية الثمانينيات تبنت مقاربة نيوماركسية لدراسة الثقافة، أهمها تلك المتأثرة بألتوسر(Althusser) وغرامشي(Gramsci).بالرغم من جملة النقاشات الداخلية ، واستجابة لصراعات وحركات اجتماعية في الستينيات والسبعينيات، تركز عمل جماعة بيرمنغهام على التفاعل بين تمثيلات(repesentations)

وإيديولوجيات الطبقة، الجندر(الجنس)،العرق، الإثنية والجنسية في النصوص الثقافية، ومركزة خصوصا على الثقافة الإعلامية. كانوا من بين الأوائل ا لذين عكفوا على دراسة تأثير الجرائد، الراديو، التلفزيون، الفيلم والأشكال الثقافية الشعبية الأخرى على الجماهير. كما تناولوا كيف يعمل صنف من الجمهور بعينه على تأويل واستخدام ثقافة إعلامية بطرق متنوعة وفي سياقات مختلفة، محللين العوامل التي جعلت الجماهير تستجيب بطرق متفاوتة لنصوص إعلامية.

من البداية، رفضت الدراسات الثقافية البريطانية بشكل ممنهج التمييز بين الثقافتين الراقية(النخبة)/و الهابطة(الشعبية)، و | تناولت بشكل جدي مواد الثقافة التي تنتجها وسائل الإعلام. وهكذا تجاوزت النزعة النخبوية البارزة في المقاربات الأدبية المهيمنة للثقافة. كما تجاوزت الدراسات الثقافية البريطانية مفهوم الجمهور السلبي عند مدرسة فرانكفورت وذلك بتصورها لجمهور نشيط يبدع معاني.معيدة إنتاج حراك الجماعات المعارضة في الستينيات والسبعينيات، انخرط مركز بيرمنغهام في مشروع يهدف إلى نقد شامل للتشكيل الحالي للثقافة والمجتمع، ساعيا إلى ربط النظرية بالتطبيق لتوجيه الدراسات الثقافية نحو تحول اجتماعي أساسي.وضعت الدراسات الثقافية البريطانية ضمن نظرية للإنتاج وإعادة الإنتاج الاجتماعي، محددة الطرق التي تعمل بواسطتها الأشكال الثقافية إما على ضبط اجتماعي أكبر، أو تساعد الأفراد على المقاومة.وقدموا تحليلا للمجتمع بوصفه مجموعة من العلاقات الاجتماعية التراتبية والمتناقضة تتصف باضطهاد كل من الطبقة، الجنس، العرق، الإثنية المستتبعة، وحتى الدولة المستتبعة على المستوى الدولي. وبتوضيف نموذج غرامشي للهيمنة والهيمنة المضادة سعت الدراسات الثقافية البريطانية لتحليل **ظاهرة الهيمنة** لقوى السيطرة الاجتماعية والثقافية، وتحديد موقع قوى المقاومة والاحتجاج المضادة للهيمنة.

كانت الدراسات الثقافية البريطانية تهدف إلى غاية سياسية ألا وهي التغيير الاجتماعي، غاية قد يعين تحديد مواقع قوى السيطرة والمقاومة ضمنها على تحقيق سيرورة التحول الاجتماعي. منذ البداية كانت جماعة بيرمنغهام متجهة صوب القضايا الأساسية في عصرهم ومحيطهم. يعود تركيزهم المبكر على الطبقة والإيديولوجيا على استشعار حاد للتأثيرات القمعية الممنهجة للطبقة في المجتمع البريطاني وحركات الستينيات التي قامت ضد اللامساواة و القمع الطبقيين. ركزت أعمال كل من Richard Hoggart, Raymond Williams, and Stuart Hallفي نهاية الخمسينيات وبداية الستينيات ابتداء على قدرات ثقافة الطبقات العمالية. فيما بعد بدأوا في الستينيات والسبعينيات في الاحتفاء بإمكانيات ثقافات الشباب مقاومة اشكال

المهيمنة للسيطرة الرأسمالية. على خلاف مدرسة فرانكفورت الكلاسيكية (ولكن على نحو مماثل لهربرت ماركوزHerbert Marcuse)، نظرت الدراسات الثقافية البريطانية إلى ثقافات الشباب على أنها توفر أشكال مقاومة وتغيير اجتماعي واعدة. من خلال دراساتها للثقافات الجزئية الشبابية، أثبتت الدراسات الثقافية البريطانية كيف يتأتى للثقافة أن تشكل أشكالا متميزة من الهوية والانتماء واحتفت بإمكانيات المقاومة الكامنة في الثقافات الجزئية الشبابية المختلفة.

بلغت الدراسات الثقافية الإنجليزية مركز الاهتمام حول كيفية مقاومة الجماعات ذات الثقافات الجزئية مختلف أشكال الثقافة والهوية المهيمنة، مبتكرة هوياتها وأسلوبها الخاصة بها. فالأفراد الذين يمتثلون للألبسة، أساليب الخطاب، السلوكات، والإيديولوجيات المهيمنة ينتجون هوياتهم ضمن جماعات التيار العام، كأعضاء في جماعات اجتماعية خاصة(مثل الأمريكيين البيض المحافظين من الطبقة الوسطى). أما الأفراد الذي يلتزمون بثقافاتهم الجزئية، مثل جماعات البانك والهيب هوبpunk or hip hop فهي تفكر وتسلك على نحو مختلف عن نظيراتها في التيار العام، وبالتالي تخلق هويات معارضة ، تعرف نفسها على نحو يقابل ويضاد النماذج المعيارية.

ومع تطورها في السبعينيات والثمانينيات، تبنت الدراسات الثقافية البريطانية بالتدريج التحليلات الناشئة عن الجندر، العرق، الجنس ومجالا واسعا من النظريات النقدية. كما طورت طرقا لبحث ونقد كيف يعمل المجتمع والثقافة القائمين على ترويج وتطبيع التمييز ضد العرقي الجنسي(وضد المثليين تحديدا) وغيرها من اشكال القمع والتمييز– أو ساهمت في بعث مقاومة ضد السيطرة والظلم. تضمنت هذه المقاربة ضمنيا نقدا سياسيا لكل أشكال الثقافة التي تروج اضطهادا، وهذا بموازاة دعمها للنصوص والخطابات والتمثيلات التي تنتج نظاما اجتماعيا أكثر عدلا ومساواة.

كانت التطورات ضمن الدراسات الثقافية البريطانية في جزء منها ردا على احتجاجات من طرف كثير من الجماعات المختلفة التي أنتجت مناهج وأصواتا جديدة ضمن الدراسات الثقافية (مثل الدراسات النسائية، دراسات المثليين والمثليات، الاتجاهات المتعددة الثقافات، البداغوجيات النقدية، ومشاريع الثقافة الإعلامية النقدية). وعليه، كان مركز استناد الدراسات الثقافية البريطانية في لحظة زمنية يتحدد من خلال المعارك التي تشهدها المرحلة السياسية، كما أن عملها الأساسي نظر إليه بوصفه تدخلات سياسية. فقد وجهت دراسات الإيديولوجيا والسياسات الثقافية جماعة بيرمنغهام نحو تحليل المواد الثقافية، الممارسات الثقافية،

والمؤسسات ضمن شبكات السلطة القائمة. في هذا السياق، سعى هؤلاء لتبيين كيف توفر الثقافة في نفس الوقت أدوات وقوى للسيطرة من جهة، وموارد للمقاومة والمعارضة. اهتمت هذه الرؤية السياسية بتحليل تأثيرات الثقافة واستخدامات الجمهور للمواد الثقافية، والتي وفرت تركيزا عالي الخصوبة على الجمهور والتلقي، وهي المواضيع التي ظلت متجاهلة في أغلب المناهج السابقة المعتمدة على تحليل النصوص. غير أنه يبدو أن التطورات الأخيرة في الدراسات الثقافية أفقدتها قدرا غير يسير من تركيزها السياسي. وبنظرة فاحصة لتاريخ الدراسات الثقافية البريطانية يمكن القول أنها ظهرت في مرحلة متأخرة من الرأسمالية تلت مرحلة الدولة والرأسمالية المحتكرة التي حللتها مدرسة فرانكفورت بوصفها تشكيلا ثقافيا أكثر تنوعا، صراعية وعالمية.
تمحورت أشكال الثقافة الموصوفة سلفا في الطور الأول للدراسات الثقافية في الخمسينيات والستينيات حول الظروف السائدة في فترة عرفت فيها إنجلترا وأوروبا توترا معتبرا بين ثقافة الطبقة العمالية التقليدية والثقافة الجماهيرية الناشئة التي تعتبر نماذجها وأمثلتها نتاج الصناعة الثقافية الأمريكية. المرحلة الألى من الدراسات الثقافية والتي برز فيها كل من Richard Hoggart, Raymond Williams, and E .P.Thopsonو الذين حاولوا الحفاظ على ثقافة الطبقة العمالية في مواجهة زحف الثقافة الجماهيرية التي تنتجها الصناعات الثقافية. تحقيقات تومسون مثلا في تاريخ معارك ونضالات ومؤسسات الطبقة العمالية الإنجليزية، دفاعات كل من ريشارد هوغارت وويليامز عن ثقافة الطبقة العاملة وهجومهم على الثقافة الجماهيرية كان جزءا من مشروع ذي توجه اجتماعي عمالي يرى في الطبقة العمالية الصناعية عاملا للتغيير التقدمي الاجتماعي قابل للتعبئة والتنظيم لمقاومة واقع اللامساواة الذي تفرضه المجتمعات الرأسمالية ومن ثم العمل على إرساء مجتمع أكثر مساواة. كان انخراط هوغارت وويليامز كبيرا في نشاطات توعية وتثقيف الطبقات العمالية، معتبرين شكل دراساتهم الثقافية كأداة للتغيير الاجتماعي التقدمي.

الانتقادات الأولية في الموجة الأولى من الدراسات الثقافية البريطانية للأمركة و الثقافة الجماهيرية من قبل هوغارد وويليامز ومركز بيرمنغهام عموما يوازيها إلى حد ما الانتقادات الأولى التي طرحتها مدرسة فرانكفورت، غير أن الأولى كانت تحتفي وتعول على الطبقة العمالية بينما الثانية (مدرسة فرانكفورت) كانت ترى أن الطبقة العمالية هزمت في ألمانيا وفي سائر بلدان أوربا إبان الفترة الفاشية وبالتالي لم ترى فيها أبدا موردا قويا للتغيير الاجتماعي التحرري. كان العمل الأول لمركز بيرمنغهام مستمرا مع راديكالية الموجة الأولى للدراسات الثقافية البريطانية (مذهب"" الثقافة والمجتمع"" لكل من هوغارد-ويليامز-تومبسون). أما العمل

الذي شمل مرحلة الثمانينيات وما تلاها من الدراسات الثقافية فقد أصبح أكثر عالمية من حيث التأثير وذلك استجابة لظروف سياسية وثقافية جديدة تلخصها ما يعرف بنظرية ما بعد الحداثة.